خامسا : قضايا الاستشراق في الدراسات القرآنية

لابد من الإشارة بأن الدراسات التي تتميز بالجد و العمق للإسلام، لم تبدأ إلا في القرن التاسع عشر، حين ذاعت الثقافة الإسلامية في أوربا، وحين بسط الغرب الاستعماري سلطانه على البلاد الإسلامية؛عندئذ نهض كثير من علماء أوروبا لدراسة الإسلام و تراثه محاولين التعرف على سر حيوته و بقائه...

وكان اهتمامهم أولا بكتب المغازي و السير و التاريخ، ثم أخذوا في دراسة القرآن وعلومه، والفقه و أصوله ، وعلوم أصول الدين، و الفرق الإسلامية، و ما إلى ذلك من مظاهر الفكر الإسلامي.

ومن أكثر القضايا التي اثارها المستشرقون حول القرآن : جمعه ، وقراءاته ، وتفسيره وترجمته وهو ما سنعرض له فيما يأتي:

1: ترجمة القرآن الكريم

مما لاشك فيه أن ترجمة معاني القرآن الكريم تعد من أصعب المحاولات التي تمت في مجال الترجمة على الإطلاق؛ وذلك لأن نقل معنى الآيات القدسية المحكمة إلى لغة أخرى غير العربية ليس بالأمر السهل إلى جانب عجز لغة الترجمة عن نقل التركيب البلاغي للآيات وما تحمله من معانٍ ومدلولات لا تظهرها إلا لغةُ القرآن التي نزل بها.
ومحاولات ترجمة معاني القرآن الكريم بدأت في وقتٍ مبكر مع الفتوحات الإسلامية للأندلس، ودخول الإسلام في البلدان الناطقة بغير العربية، فقد ظهرت جاليات إسلامية تعيش في دول أوربا وآسيا وأمريكا تحتاج إلى معرفة القرآن وفهم معانيه، والوقوف على أحكامه بغير أن تتعلم العربية لغة القرآن، ولتحقيق هذا الغرض بدأ بعض الأوروبيين آنذاك في تعلم اللغة العربية وتمت على أيديهم المحاولاتُ الأولى للترجمة، وتبعها محاولات المستشرقين الذين تركوا بلادهم واستقروا في البلاد الإسلامية وفق أهداف استعمارية، وقد تعرض القرآن الكريم إلى مجموعة من الترجمات الخاطئة على يد هؤلاء المستشرقين من أصحاب النيات السيئة التي تسعى إلى تشويه مقاصد القرآن وإفساد معانيه، والعمل على تفريغه من قدسيته وجمال تعابيره ومحكم آياته.
تعد الترجمات التي قام بها المستشرقون من أسوأ المحاولات التي تمت في مجال ترجمة معاني القرآن الكريم على الإطلاق، فقد كان هدفها الوحيد إيجاد حاجز بين القرآن وبين من يريد فهم الإسلام، ومن أجل ذلك شوهوا معاني القرآن أيما تشويه، وجهلوا - أو تجاهلوا - أيسر قواعد اللغة ونظام التراكيب ومعنى المفردات العربية، ولم يحاولوا فهم معاني القرآن على الإطلاق، ولم يعتمد أحد منهم البحث العلمي للوصول إلى الحقيقة، وهناك مغالطات كثيرة في ترجماتهم، والفكرة السائدة فيها أن القرآن ليس إلا مجموعة أقاويل متفرقة وقصص سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم من علماء اليهود والنصارى.
وقد جاءت ترجماتهم على قسمين :ترجمات للقرآن كله، وترجمات لبعض سور القرآن، ومنها ترجمات مرتبة حسب الترتيب المصحفي المأثور مثل ترجمة" جورج سيل "وترجمة" آربري"، ومنها ما هو مرتب على ترتيب النزول مثل ترجمة" راد ويل"، و"بالمر"، و"بيل "وأمثالهم الذين غيروا الترتيب المصحفي المأثور افتراضا منهم أن الترتيب النزولي يبين التطورات الفكرية للرسول صلى الله عليه وسلم.
وتعد ترجمة" ألكسندر روز "إلى الإنجليزية والتي أسماها "قرآن محمد" وبدأت تصدر مجزأة عام 1664م، وطبعت بكاملها عام 1718م، رائدة لجميع الترجمات، ولها قيمة علمية كبيرة عند المستشرقين، برغم ما تحمله من افتراءات كثيرة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى القرآن.. وبعدها توالت ترجمات معاني القرآن إلى عدة لغات أوربية وخاصة إلى الفرنسية، ولا توجد اليوم لغة أوربية أو شرقية إلا وفيها ترجمة أو عدة ترجمات لمعاني القرآن.
•مغالطات وأخطاء:
ويمكن إجمال المغالطات والأخطاء التي احتوتها ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم فيما يلي:
.1زعمهم أن الإسلام كان للعرب وحدهم.
.2 محاولة التقليل من أهمية الإسلام ودعوة القرآن.
.3 زعمهم أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت حركة إصلاحية محلية مؤقتة ومقصورة على أهل مكة.
.4 سعيهم المتعمد إلى تشويه مقاصد القرآن وتفريغه من قدسيته.

5. تعمدهم قلب الترتيب المصحفي المأثور ووضع ترتيب حسب أهوائهم وزعمهم الباطل، كما حدث في ترجمة" داؤد " اليهودي العراقي التي ظهرت عام 1956م، واخترع فيها ترتيبا حسب النغمة الشعرية للسور والآيات، وجرد الترجمة من أرقام الآيات فضلا عن النص العربي للمصحف.

6. تعمدهم التقديم والتأخير والحذف لكلمات القرآن، واستخدام لغة الحوار الدارج في ترجمة الآيات المقدسة.

وأمام هذا التشويه المتعمد من المستشرقين للقرآن الكريم كان لابد أن تظهر ترجمات صادقة لمعاني القرآن يقوم بها مسلمون من أهل السنة، فظهرت ترجمة الدكتور "عبد الحكيم خان" بالهند عام 1905م، وترجمة" الميرزا أبو الفضل آبادي "عام 1911م، وترجمة جمعية الدعوة الإسلامية بالهند عام 1915م، وترجمة "السيد حسين بلجرامي" عام 1926م. وتعد ترجمة" محمد مارماديوك بيكتهال "الإنجليزي الأصل التي ظهرت عام 1930م بلندن، وقام الأزهر بمراجعتها قبل طباعتها وسماها صاحبها" معاني القرآن المجيد "من أفضل الترجمات التي قام بها مسلم من أهل السنة، إذ أجمع العلماء المعنيّون بترجمات القرآن وتفاسيره على أن معاني القرآن لم تترجم إلى الإنجليزية أحسن من ترجمة بيكتهال من ناحية جمال الأسلوب وفصاحة اللغة والمحافظة على العقائد.

وبعدها جاءت ترجمة" محمد أسد "المسلم النمساوي التي اعتمد فيها على ما كتبه أئمة التفاسير مثل البيضاوي والبغوي والزمخشري والرازي، وكتب الصحاح الستة علاوة على القواميس والمعاجم المعترف بها.

•ترجمته إلى اللغة السويدية:

وتعد ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة السويدية التي قام بها" محمد كنوت بيرستروم"، الدبلوماسي السويدي الذي اعتنق الإسلام عام 1985م، وصدرت عن دار بروبريوس في استكهولم في حوالي ألف صفحة من الترجمات الحديثة لمعاني القرآن، فقد ظهرت عام 1999م

2: جمع القرآن الكريم.

لقد ترافق اهتمام المستشرقين بترجمة القرآن، إلى اللغات الأوربية بالقيام بدراسات حول النص تتوخى معرفة أوثق بمضمونه...، وذهبوا مذاهب شتى في تفسيره، وأتوا بتعليلات وتأويلات كلها تنساق في التشكيك في صحة القرآن و في أمانة نقله، و تبليغه، وجمعه و ترتيبه، وقالوا بأن النص نالته تعديلات بالزيادة، و النقصان، وذلك بالتشبث بالروايات الشاذة الموجودة في بعض المصادر القديمة، وخاصة تفسير الطبري والمتعلقة بالاختلافات المنسوبة إلى المصاحف الفردية لبعض الصحابة أمثال ابن مسعود و أبي بن كعب و علي بن أبي طالب، وابن عبد الله و موسى الأشعري...

وقد جمع المستشرق آرثر جفري هذه الروايات الشاذة والمنقطعة ونشرها مع كتاب "المصاحف" لابن أبي داوود (ت.316هـ) بنية مبيتة للتشكيك في موثوقية النص القرآني.

إنهم يتحاشون الاعتراف بأن القرآن جمع وفق منهج علمي رصين قوامه التوثيق والدقة والتثبت. وخلافا لمزاعم"جفري" فقد ذكر السيوطي في كتاب " الإتقان في علوم القرآن"أبان جميع الصحابة الذين ذكر "جفري" بعضهم في تقديمه كتاب " المصاحف" أجمعوا على المصحف العثماني، وتلقوه بالقبول و العناية و أخذوا بما تضمنه من الأوجه والقراءات

والواقع أن المسلمين يتمسكون منذ أربعة عشر قرنا بالمحافظة على الوحي القرآني لفظا و معنى، ومن نافلة القول أن فعالية مناهج البحث تعود إلى المصادر المعتمدة الأصلية الموثوق بها، لأنها وحدها توصل إلى اكتشاف الحقيقة العلمية و البرهنة عليها بصورة موضوعية..

وقد اعتمد المنهج الاستشراقي المطبق في الدراسات الإسلامية و القرآنية، كما ذكر "مونتجمري وات في كتابه " الوحي الإسلامي و العالم الحديـــــث") بأن هذا المنهج مؤسس على النظرة العلمية العقلية الحديثة القائمة على الاعتقاد، بإمكانية تطبيق طرقه في مجالات كثيرة..وفي نفس السياق يقول (رودي بار: "نحن معشر المستشرقين، عندما نقوم بدراسة العلوم العربية والإسلامية، إنما لنبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام و مظاهره المختلفة، ونحن لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه، دون أن ننعم فيه النظر بل لا نقيم وزنا، إلا لما يثبت أمام النقد التاريخي، المعيار الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا..

3- شبهات المستشرقين حول التفسير بالمأثور والرد عليهم

أثار المستشرقون حول التفسير عدة شبهات ؛ وذلك للتقليل من شأن القرآن الكريم ، والتشكيك في موثوقيته ، وقطع الصلة بينه وبين المسلمين ، وإحداث الاضطرابات في عقول القراء والمثقفين .

وهذه بعض شبهاتهم :

أ :شبهة امتناع بعض الصحابة والتابعين عن تفسير القرآن الكريم

ذكر المستشرق (جولد زيهر) في كتابه : المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ،دعوى امتناع الصحابة والتابعين والعلماء عن تفسير القرآن الكريم فقال :

" إن هذا النوع من النظر والتأليف لم يصادف تشجيعاً في الأوساط الدينية في الاسلام قديماً فحسب ؛ بل إن العلماء والفقهاء حذروا من ذلك غاية التحذير ، ولدينا شواهد من القرن الثاني الهجري تدل على أن الاشتغال بالتفسير كان ينظر إليه بعين الريبة ، وأن الرأي إزاء هذا العمل كان مصحوباً بالمقاومة له والفزع منه .

ثم ذكر بعض الشواهد على ما يزعم ؛ عن بعض الصحابة والتابعين والعلماء ، واستدل كذلك بقصة عن سيدنا عمر وضربه لرجل يسمى (ابن صَبِيغ) لأنه يسأل عن المعاني الغامضة في القرآن الكريم .

كما ذكر رواية محكية عن الامام أحمد : ثلاثة أشياء لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي.

الرد:امتنع من الصحابة والتابعين عن التفسير فقد كان ذلك تورعاً كما يقول ابن عطية :

" كَانَ جِلَّةٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعَامِرٍ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِمَا يُعَظِّمُونَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ وَيَتَوَقَّفُونَ عَنْهُ تَوَرُّعًا وَاحْتِيَاطًا لِأَنْفُسِهِمْ مَعَ إِدْرَاكِهِمْ وَتَقَدُّمِهِمْ.

. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ: وَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِي يَتَوَرَّعُونَ عَنْ تَفْسِيرِ الْمُشْكِلِ مِنَ الْقُرْآنِ، فَبَعْضٌ يُقَدِّرُ أَنَّ الَّذِي يُفَسِّرُهُ لَا يُوَافِقُ مُرَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُحْجِمُ عَنِ الْقَوْلِ. وَبَعْضٌ يُشْفِقُ مِنْ أَنْ يُجْعَلَ فِي التَّفْسِيرِ إِمَامًا يُبْنَى عَلَى مَذْهَبِهِ وَيُقْتَفَى طَرِيقُهُ."

بل ورد من طريق صحيح أن سيدنا عمرτ سُئِل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ فقال:

يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس.

وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس:

ما تقولون في تفسير هذه الآية:﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار،ثم قرأ:﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾

ب: شبهة التضاد في روايات التفسير والرد عليها

ومن مزاعم (جولد زيهر) حول التفسير بالمأثور: أن التضاد والاختلاف في روايات التفسير بالمأثور يقلل من قيمتها فيقول فى كتابه "المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن" - ما نصه: (وإنما لمما يلفت النظر فى هذا المحيط، هذه الظاهرة الغريبة، وهى أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو، وهى فى نفسها تظهر فى تضاد شديد بينها وبين بعضها، مما لا يقبل التوسط أو التوفيق"

ثم يقول بعد كلام ساقه فى هذا الموضوع: "ويمكن أن يُرى من ذلك إلى أى حد يكون مقدار صحة الرأى المستند إلى ابن عباس، وإلى أى حد يمكن الاعتراف به. وما نعتبره بالنسبة له وللآراء المأثورة عنه، يمكن أن يُعتبر إلى أقصى حد بالنسبة للتفسير المأثور، فالأقوال المتناقضة يمكن أن ترجع دائماً إلى قائل واحد، معتمدة فى الوقت نفسه على أسانيد مرضية موثوق بها ..."

ثم يقول بعد كلام ساقه عن الإسناد وما قع فيه من اللعب والخداع: "ومن الملاحظات التى أبديناها، يمكن أن نخلص بهذه النتيجة: وهى أنه لا يوجد بالنسبة لتفسير مأثور للقرآن ما نستطيع أن نسميه وحده تامة أو كياناً قائماً، فإنه قد تُروى عن الصحابة فى تفسير الموضوع الواحد آراء متخالفة وفى أغلب الأحيان يناقض بعضها بعضاً من جهة، ومن جهة أخرى فقد تُنسب للصحابى الواحد فى معنى الكلمة الواحدة أو الجملة كلها آراء مختلفة، وبناء على ذلك، يُعتبر التفسير الذي يخالف بعضه بعضاً، والمناقض بعضه بعضاً، مساوياً للتفسير بالعلم".

الرد:

" إن الصحابة ψكانوا يفسّرون القرآن بمقتضى لغتهم العربية، وما يعلمونه من الأسباب التى نزل عليها القرآن، وبما أحاط بنزوله من ظروف وملابسات، وكانوا يرجعون فى فهم ما أشكل عليهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن المفسّرين من التابعين كانوا يجلسون لبعض الصحابة يتلقون عنهم ويروون لهم، فأخذوا عنهم كثيراً من التفسير، وقالوا فيه أيضاً برأيهم واجتهادهم وكانت لغتهم العربية لم تصل إلى درجة الضعف التى وصلت إليها فيما بعد.

ونزيد عليه أن ما دُوِّن من العلوم الأدبية، والعلوم العقلية، والعلوم الكونية، ومذاهب الخلاف الفقهية والكلامية، لم يكن قد ظهر شئ منها فى عصر الصحابة والتابعين، وإن كان قد وُجِدت النواة التى نمت فيما بعد وتفرَّعت عنها كل هذه الفروع المختلفة. كان هذا هو الشأن على عهد الصحابة والتابعين، فكان طبيعياً أن تضيق دائرة الخلاف فى التفسير فى هاتين المرحلتين من مراحله، ولا تتسع هذا الاتساع العظيم الذى وصلت إليه فيما بعد.

كان الخلاف بين الصحابة فى التفسير قليلاً جداً، وكذا بين التابعين وإن كان أكثر منه بين الصحابة، وكان اختلافهم فى الأحكام أكثر من اختلافهم فى التفسير.

ويمكن القول بأن الاختلاف الذي وقع بين السلف في تفسير القرآن الكريم ؛ يرجع إلى عدة أمور :

* أن يُعبِّر كل واحد من المفسّرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر منها، بل الأمر كما قال الله تعالى:

فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: 124] .. وإذا قيل: ما ذكره؟ يقال: ذِكْره قرآنه، أو كتابه، أو كلامه، أو هُدَاه، ونحو ذلك. وهذا على القول المشهور من أن المصدر مضاف للفاعل، كما يدل عليه سياق الآية وسباقها.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما فى الاسم من الصفة المختصة به فلا بد فى ذلك من قدر زائد على تعيين المسمى، مثل أن يسأل عن القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وقد علم أنه الله ولكن يريد أن يعرف معنى كونه قدوساً. وسلاماً، ومؤمناً، ومهيمناً، ونحو ذلك.

والسَلَف كثيراً ما يُعبِّرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر، كمن يقول: القدوس: هو الله، أو الرحمن، أو الغفور، ومراده أن المسمى واحد، لا أن هذه الصفة هى هذه. ومعلوم أن هذا اختلاف لا يمكن أن يقال إنه اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس.

ومثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو اتباع القرآن، لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث علىّτ عند الترمذى:

(...وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ...) ....

ومنهم مَن قال: هو اتباع السُّنَّة والجماعة، ومنه مَن قال: هو طريق العبودية، ومنه مَن قال: هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك فهذه كلها أقوال لا منافاة بينها ولا تباين، بل كلها متفقة فى الحقيقة، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، وهو طاعة الله ورسوله، وهو طريق العبودية لله، فالذات واحدة، وكلٌ أشار إليها ووصفها بصفة من صفاتها.

* أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه.

* أن يُعبِّروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف قليل فى اللغة، ونادر أو معدوم فى القرآن، وقَلَّ أن يُعبَّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدى جميع معناه، وإنما يُعبَّر عنه بلفظ فيه تقريب لمعناه

* أن يكون فى الآية الواحدة قراءتان أو قراءات، فيفسِّر كل منهم على حسب قراءة مخصوصة فيظن ذلك اختلافاً، وليس باختلاف وأمثلة هذا النوع كثيرة. وقد خُرِّج على هذا الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى. ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ﴾ [النساء: 43، المائدة: 6] .. هل هو الجِماع، أو الجس باليد؟ فالأول تفسير لقراءة: "لامستم"، والثانى لقراءة: "لمستم" ولا اختلاف.

هذه هى الأوجه بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السلَف التى تبدو متعارضة.

ج- الطعن في رجال التفسير بالمأثور

اتهم جولدزيهر سيدنا ابن عباس وغيره من الصحابة ψ والتابعين ، بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب ، وعرض زعمه هذا فى كتابه المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ،وسنتعرض لنموذج من رجال التفسير ؛ وهو سيدنا عبد الله بن عباس τ .

يقول جولدزيهر: "وكثيراً ما يُذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أى ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى، الذى أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبى يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام، ويختم التوراة فى ستة، يقرؤها نظراً، فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يُقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب فى الاستفادة من التوراة.

الرد على هذا الاتهام

في بداية الرد على هذه الشبهات التي أثارها جولدزيهر عن ابن عباس ؛ أذكر هنا شيئاً من مناقب ابن عباس وقيمتة العلمية .

وقد كان بعض الصحابة وكثير من التابعين يرجعون إلي ابن عباسτ فى فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجَّه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عَزَّ عليهم فهمه من كتاب الله تعالى.

ففى قصة موسى مع شعيب أُشكل على بعض أهل العلم، أى الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشراً؟ ولما لم يقف على رأى يمم شطر ابن عباس، الذى هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه، وفى هذا يروى الطبرى فى تفسيره، عن سعيد بن جبير قال: "قال يهودى بالكوفة - وأنا أتجهز للحج - إنى أراك رجلاً تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حَبْر العرب - يعنى ابن عباس - فسائله عن ذلك، فلما قدمتُ مكة سألتُ ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ النبى إذا وعد لم يُخلف، وقال سعيد: فقدمتُ العراق فلقيتُ اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أُنزِلَ على موسى.

سادسا :منهجية الاستشراق في التعامل مع اللغة العربية:

الصلة بين اللغة والاستشراق صلة وثيقة حتى بالغ أحدهم فى هذا التقدير فذهب إلى أن" **الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة**، والمستشرقون ينطلقون في دراسة اللغة العربية وآدابها من المناهج التى تدرس بها لغاتهم فمن الناحية المنهجية الاستشراق يطبق على الاسلام ولغته وعلى المؤلفات العربية التى يشتغل بها المعيار النقدى نفسه الذي يطبقه على تاريخ الفكر فى بلاده، وعلى مصادره هو.

إن الدراسات اللغوية عند العرب لها قيمة كبيرة، فهى حلقة مهمة فى سلسلة العلوم الاسلامية" وقد عدهافايس Weiss على درجة من الأهمية لمن أراد أن يقوِم الحضارة الاسلامية، بل ذهب هذا المستشرق إلى أبعد من ذلك إذ نوه بأهميتها التي تتجاوز دورها الكبير فى تاريخ الدرس اللغوى بعامة، إلى مكانتنها فى دراسة تاريخ الفكر الإنساني على الإطلاق.

لقد أدرك الاستشراق بماله من معرفة بقوة تأثير اللغة العربية في السير والحركة والتقدم وبماله من صلة بعلومها وآدابها وفنونها وبماله من دراية لقرآنها وعروبتها وتراثها، فقرر أن يتناول السهم ليصوبه في قلب أصحابها ليرديهم قتلى، لقد كان فى تركيز الجهد الاستشراقي على دراسة الجوانب الحضارية الاسلامية أكبر عون في السيطرة على الأمة الاسلامية وتسييرها على النحو الذى يريدون، ولكن غرضا كهذا لا يتأتى تحققه مالم تدرس العربية دراسة مستفيضة بوصفها لغة الدين الاسلامى، وفى هذا يقول برنارد لويس" **وقد وجد الطلبة الإنكليز في الهند لدى دراستهم لغات مسلمى الهند ومدينتهم، أن أبحاثهم وتنقيباتهم تحتم عليهم دراسة العربية التى هى أساس الثقافة الاسلامية فى أى لغة من اللغات"**

فأقبل الاستشراق على دراسة لغة المسلمين وأعلن المستشرقون هجومهم على اللغة العربية بتلفيق الشبهات حول أصالتها فى التاريخ القديم والعصور العربية الأخرى ، كما اتهموها فى العصر الحديث أنها لغة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث وغير قادرة على مواكبة التقدم العلمى والتكنولوجي ووصل بعضهم الأمر إلى اعتبار اللغة العربية لغة ميتة، مثلها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغة الأوروبية الحديثة ، وبأنها لغة دينية بمعنى أنها تستخدم في المجال الدينى وفيما يتعلق بالعبادة ولكنها لا تصلح كلغة للحديث والكتابة تشبيها لها ببعض اللغات الدينية القديمة والتي انحصر مجال استخدامها فى المجال الديني ولم يعد لها استخدام فى الحياة اليومية مثل السريانية وغيرها، وهو ما أقر به المستشرق "برينو" لطلابه في درس اللغة العربية حين قال" :**أتريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالي الذين حولك وأن تختبر المسلمين فى زيارتك لتعرف ما يهمك؟ لاتظن أنى سأعلمك لغة القرآن فهذه اللغة قد ماتت ولايتكلم بها أحد، فهى لاتينية العرب، وهى اللغة التى أنزل الله بها كتاب المسلمين ، وهى لغة الصلوات والاستغاثات والتمنيات أحيانا، وهى كذالك المستعملة فى جنة " محمد" وسأحبب إليك دراستها فى المستقبل إذا أرادت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحورالعين"**

ووصف المستشرقون اللغة العربية بالجمود وبأنها لغة بدوية لا تصلح للتعبير عن المصطلح العلمى الحديث وأنها السبب فى التخلف الحضارى لأنها غير قادرة على استيعاب الحضارة الحديثة، ويقابل هذا الذم في اللغة العربية الفصحى الثناء على اللغة العامية وعلى اللهجات العربية المختلفة ووصفها جميعا بالمرونة والسهولة والقدرة على التعبير عن المطالب الحديثة، ومدحوها كوسيلة تثقيف للجماهير العربية وللتخلص من الأمية المنتشرة بسبب صعوبة اللغة العربية الفصحى.

ومن أجل هذا قام الاستشراق بإدخال تدريس لهجات العرب المختلفة فى مدارسهم وجامعاتهم ومعاهدهم، وفي سنة 1880م ظهر كتاب " قواعد العربية العامية في مصر" لـ ولهام سبيتا الذى كان أول كتاب في العامية المصرية من الأجانب.

وظهر كتاب "المقتضب فى عربية مصر" لـ فيوت وباول اللذان اتجها فيه وجهة علمية لتسهيل دراسة العامية المصرية ،تلك التى ضاعت كرامتها على حد قولهما لتركها تنساب مفككة بدون ضوابط حتى أصبحت لاوجود لها كلغة مكتوبة ولم يفتهما أيضا أن يرددا الشكوى من صعوبة اللغة العربية الفصحى وخاصة حروفها الخالية من حروف الحركة.

وهناك من دعا إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، فالمستشرق "فنسك" الذى نشر رسائل عديدة مكتوبة بحروف أدبية في اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة "أجرومية مصرى" كتبها على هذا النحو: بل لسان المصرى ومعها أمسلة، يقصد: باللسان المصرى ومعها أمثلة، وهذه الدعوة إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية قصد التيسير تتجاهل أن الإملاء بالعربية أيسر، وأكثر انضباطا من الإملاء والكتابة فى اللغتين الفرنسية والانجليزية اللتين تكثر فيهما الحروف التى تكتب ولا تنطق ، والكلمات التي لها نطق يختلف عن الهجاء.[1]

ومما حاول المستشرقون ضرب اللغة العربية به هو التشكيك فى أصالة النحو العربي، فرد بعض المستشرقين النحو العربي إلى أصول يونانية أو سريانية أو هندية أو لاتينية ، فقد قال بالتأثير اليونانى على النحو العربى كل من المستشرق الفرنسى أرنيست رينان والمستشرق الألمانى هوفمان وأميركس والمستشرق الهولندى فيرستيج ، ومن هؤلاء من قال بتأثير يوناني مباشر، ومنهم من قال بتأثير يوناني عن طريق السريانية، وقد ادعى ف – بريتريوس وجود تأثير يوناني لاتيني مشترك على النحو العربي

وقد اعتمد هذا الفريق المنادى بالتأثير الأجنبى على النحو العربي على فرضيات لا أساس لها من الصحة "منها محاولة خلق علاقات تاريخية بين النحاة العرب والنحاة السريان ، مثل علاقة مفترضة لأبى الأسود الدولى ويعقوب الرضاوى، وافتراض علاقة بين حنين بن إسحاق والخليل بن أحمد الفراهيدى ، كما افترض دورا للفرس فى نقل المعرفة اليونانية إلى العرب ، مثل معرفة عبدالله بن المقفع باليونانية وتأثيره فى الخليل بن أحمد، ومن هذه الفرضيات أيضا القول بأن مصطلحات الإعراب والصرف والقياس والحركة مصطلحات يونانية ، وإن تقسيم الكلام عند سيبويه تقسيم يوناني.

وفى كل هذا يتجاهل المستشرقون ارتباط ظهور النحو بالقرآن كأحد العلوم التى نشأت من القرآن الكريم لضرورة اسلامية خالصة ، ولأسباب وظروف داخلية كما يتجاهل المستشرقون الآراء الواردة فى المصادر العربية فى تاريخ النحو والتي تقر بنشأته الداخلية

كما سعى المستشرقون إلى إفساد اللغة العربية وذلك بإدخال مصطلحات غير غربية إلى صميم النص العربى وما نجد من خطأ فى تفسير بعض المصطلحات العربية : مثل محاولة تفسير كلمة (الطلقاء) بقولهم أنهم الذين أدخلوا في الاسلام كرها، وتفسير كلمة (ع م د) بأنه غسيل الولد بماء العمودية فى حين أن كلمة العمودية ليست عربية وإنما هي كلمة قبطية تنطق "معمو ذيت" بالذال المعجمية.

ومن مزاعم الاستشراق أن المعلقات السبع ماهى إلا خرافة وليس لها وجود تحقيقى، والتسمية "معلقات" تسمية متأخرة ويثير الشك فى القصائد ذاتها وفى أسمائها وشعرائها ويدعى أنه لايوجد بيت شعرى واحد موثوق فى صحته قبل عام 500م

وقد سار على هذا النهج عدد من المستشرقين، مثل المستشرق (نولد كه) فى بحثه "ملاحظات على صحة القصائد العربية القديمة" حيث يربط فيه بين الخبر الأدبى والخبر التاريخى ويزعم أن الموقف من الشعر العربى القديم ماهو إلا جزء من التاريخ العربى القديم ، فكما أنه من الصعب توثيق أخبار العرب قبل الاسلام وإعطاء تصور تاريخى عن حياتهم فى الجاهلية فالأمر كذالك ينطبق على الشعر الجاهلى من حيث تأليفه ونسبته إلى ناظميه كما يشكك في صحة الأنساب الواردة في المصادر العربية القديمة.

وأما المستشرق صمويل مرجليوث حسب قول محمد هدارة: " على كثير ما كتب المستشرقون في قضايا اللغة العربية والأدب العربى لانجد مقالة تمثل سوء المنهج العلمي خضوعا للتعصب المقيت ضد العروبة والاسلام أشد وقعا وأبعد أثرا من مقالة صمويل مرجليوث المستشرق الانجليزى المى نشرها بعنوان "أصول الشعر العربي []"ويهدف من مقالته هذه إلى التشكيك فى الإسلام بإثارة الشكوك حول الشعر العربى"

سابعا : الترجمة وتحقيق المخطوطات لدى المستشرقين

ومما يتربط بأمر اهتمام المستشرقين باللغة العربية ما عرف من دوور لهؤلاء في ترجمة المخطوطات حيث توجهت المدارس الاستشراقية نحو نشر المخطوطات العربية وتحقيقها وترجمة البعض منها أو التقديم للبعض الآخر ، ولكن المأخذ البارز على أعمال المستشرقين خلال هذه الفترة هو أن الاتجاه نحو التحقيق أو نشر المخطوطات كان غير منسق أو غير منظم إذ نجد معظم المستشرقين ينشرون مخطوطات تتعلق بالشعر والنحو والتاريخ والجغرافية دون التقيد بفترة تاريخية معينة أو بموضوع من المواضيع، عدا ماقام به البعض القليل منهم، فالمستشرق الهولندى دى يونغ P.de Jong قد نشر "الأنساب" لأبى فضل المقدسى، و "الأنساب المتفقة" لابن القيروانى، و"كتاب الخراج" ليحيى بن آدم القرشى، والمستشرق الآخر دوزي R.R Dozy حقق "المعجب فى تلخيص أخبار المغرب" للمراكشى، ونشر "البيان المغرب" لابن عذارى، و"نزهة المشتاق" للادريسى،القسم الخاص بإفريقيا والأندلس.

وممن يستحق الذكر من الاستشراق الفرنسي (دى ساسي) الذى نشر العديد من المخطوطات الموجودة في مكتبة باريس الوطنية، وكتب عن تاريخ قدماء العرب وأصل آدبهم، وحقق عددا من الكتب عن اليمن ، وأشعار المعري ، ومقامات الهمداني ومقامات الحريري. والمستشرق كاترمير Quatremere الذى ترجم مصنفات الميداني، و"تاريخ مغول الفرس" لرشيدالدين، "ومنتخبات أمثال الميدانى"، وكتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزى،و تقويم البلدان لأبى الفداء، وكتب عن الأنباط والعباسيين والفاطميين.

ومن المستشرقين الألمان (سيمون ثويل) ترجم "أطواق الذهب" للزمخشرى، وألف ليلة وليلة، وسيرة النبى(صلى الله عليه وسلم) لابن هشام، ونشر كتاب "الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين" للأنبارى، وترجم معلقة الشنفرى

لكن المستشرق(ثايل) اشتهر بكتابه "تاريخ الخلفاء" بخمسة أجزاء، مبتدأ بتاريخ الخلفاء الراشدين وحتى نهاية الدولة الأموية

وكذالك المستشرق فستينفيلد Wustenfeld الذى قدم خدمات جليلة بتحقيقاته الكثيرة ، فقد حقق ونشر كتاب "طبقات الحفاظ" للذهبى، وكتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و "تقويم البلدان" لأبى الفداء، وكتاب "اللباب" لابن الأثير، و"تهذيب الأسماء" للنووى، و "البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الإعراب" للمقريزي، و"المشترك" لياقوت الحموي، و"المعارف" لابن قتيبة، و"الاشتقاق" لابن دريد، وعددا من تاريخ مكة

ولعبت فرنسا دورا هاما فى الدراسات الاستشراقية من تأسيس مدارس " ريمرس وشارتر" لتدريس اللغة العربية إلى إنشاء كرسي للدراسات الاسلامية فى جامعة السوربون التى ألحق بها معهد الدراسات الاسلامية.

لقد زودت المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية عام 1795م المترجمين والمتخصصين الذين لجأ إليهم نابليون إبان حملته على مصر والتى لعبت دورا هاما فى تطوير الدراسات الاستشراقية عامة والعربية خاصة، وكذلك المعهد المصرى الذى أسسه نابليون بالقاهرة وتزويده بمطبعة قامت بطبع ونشر الكتب والمخطوطات ذات العلاقة بالدراسات الشرقية، بالإضافة إلى الدور الذى لعبته جامعة السوربون ومازالت تلعبه.

ومن المعاهد الأخرى المتخصصة فى الدراسات العربية المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة، والذى أنشأه (ماسبيرو) عام 1880م، ومدرسة الأدب العالمية فى الجزائر، ومعهد الدراسات المغربية العليا فى الرباط ، والمعهد الفرنسى فى دمشق ، وغيرها من المعاهد التى لاتزال تهتم بهذه الدراسات وإن تقلص بعضها بعد زوال الاستعمار.

لقد اهتم الفرنسيون باللغة العربية وفقهها ونحوها وآدابها وأنتجوا مؤلفات تتناول هذه المجالات ، فالمستشرق (بوستيل) ألف كتاب "قواعد اللغة العربية" وكذلك المستشرق (إيربلو) كتب "الملكية الشرقي" وهى دائرة المعارف تبحث فى علوم الشرقيين وتاريخهم وأديانهم.

وكان لإنشاء كراسى اللغات الشرقية فى الجامعة الروسية أثره فى نشأة تطور الدراسات الاستشراقية، مثل جامعة خاركوف التى أنشأت عام 1804م كرسيا للغات الشرقية، وجامعة قازاندرست اللغة العربية عام 1807م، وكذلك جامعة موسكو أنشأت معهد الألسنة عام 1811م، وجامعة بترسبورغ أنشأت المدرسة التهذيبية العليا عام 1816م، واستعانت بالمستشرق دي ساي الذى تتلمذ على يديه الكثير من المستشرقين الروس وعلى رأسهم ديمانج وشاموري سينكوفسكي

سابعا: الاستشراق والأدب العربي

لاشك فى أن روادا من الأدباء والفلاسفة والنقاد فى العالم العربي والاسلامي كانوا من بين أولئك الذين تعلموا على أيدي المستشرقين، ومما قيل في هذا **"هذا من تقلبات الدهر وعجائب أمره لقد مر على المسيحيين فى أوربا حين من الدهر كانوا يشدون فيه الرحال إلى الأندلس ليتعلموا كتابهم المقدس من علماء المسلمين ، أما الآن فقد انقلب الأمر رأسا على عقب حيث أصبح المسلمون يرجعون إلى أهل الغرب يسألونهم ماهو الاسلام، وماهو تاريخه، وماهى حضارته؟ ليس هذا فقط بل أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الاسلامي"**

و فى النموذج نذكر الدكتور طه حسين صاحب كتاب "فى الأدب الجاهلى" الذي استفاد من جهود هؤلاء المستشرقين وأمثالهم واستخدم مصادرهم ومناهجهم فى دراسة الشعر العربى القديم والحضارة الاسلامية، لذا أجمعت لجنة الغمراوى والعوامرى ومحمد عبدالمطلب بأن الكاتب قد مس مشاعر العرب والمسلمين في:

-الوحدة القومية والعاطفية الدينية.

-الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنه وحي من عند الله.

-كرامة السلف من أئمة الدين واللغة.

-محاولة التشكيك فى صدق القرآن ونهيه عن الكذب.

-محاولة إضاعة الوحدة الاسلامية.

-حرمة الصحابة والتابعين.

-عدم تنزيه القرآن عن التهكم والازدراء.

-عدم تنزيه النبي وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف.

-إساءة الأدب العام مع الله ورسوله.

بنى طه حسين موقفه من الشعر الجاهلي متبعا منهج الشك بل رفض كل أورده القدامى من الأدب سواء شعرا أو نثرا ، فيقول:"أريد أن أقول الشك ، أريد ألا أتقبل شيأ مما قاله القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبيت ، إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان"فها هو يصرح بجرأة وعلانية عن نظريته التى تبناها فى طرحه غير آبه لردود من حوله ، حيث يقول" :**فأول شئ أفاجئك به فى هذا الحديث هو أننى شككت فى قيمة الأدب الجاهلى ، وألححت فى الشك،أو قل ألح على الشك ،فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بى هذا كله إلى شئ إن لم يكن يقينيا فهو قريب من اليقين ، وذلك أن الكثرة المطلقة مما يقال أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شئ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الاسلام.**

إذن فمن الواضح أنه لاسبيل لأحد إلى إنكار أثر الاستشراق فى اتجاهات طه حسين، لما حواه كتابه المذكور من جرأة فى نقد أساليب القدماء ، وتهور فى إبداء الرأى ، ورفض الحقائق المقدسة اعتمادا على العقل القاصر أو البراهين الزائفة أو المخالطات الجزئية

ولمواجهة فكر طه حسين نرى أن عشرات من المؤلفات ظهرت فى المكتبة العربية لتتناول الشعر الجاهلى، مثل العصر الجاهلى لشوقى ضيف ، ومقامات العرب لبدوى طبانة، وتاريخ الأدب الجاهلى لعلي الجندى ، والحياة العربية من الشعر الجاهلى لأحمد شوقى وغيرها.

لقد استفاد طه حسين من ما كتبه المستشرق مرجليوت فى مقالته "أصول الشعر العربى" ، حيث حاول التأكيد على إفشاء النظرية المزعومة التى روجها له مرجليوت، وادعى خلالها أن الشعر الجاهلى وضع أكثره بعد الاسلام ، وكان القصد من وراء ذلك تحطيم الدعائم التى كان يقوم عليها القرآن الكريم ، وبالتالى هدم عددا من القيم والثوابت فى الفكر الإسلامي والأدب العربى.ويعترف بتأثره قائلا:" أريد أن أقول بأنى سألك هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة.

إن تعطش طه حسين إلى إدراك حقيقة الأدب الجاهلى كان دأبه وغايته ، بل لكل مفكر وباحث غاية وهدف يسعى إلى تحقيقها ومعرفة اليقين فيها،إذن كان لابد لطه حسين "أن يعرف هذه الحقيقة فتقدم لنقد هذا الأدب البريء، إذ يسيطر على نقده شكوك ديكارت، والحقيقة أن روح النقد والإثارة عن طريق التشكيك فى القيم والمسلمات السائدة استولت على طه حسين وبدت معالمها فيما خط قلمه، وخاصة ماكتبه فى مرحلة شبابه"

إذن عمل طه حسين لحساب نشر المبادئ والنظريات المغالطة للشرقيين من خلال انتهاجه منهج الغربيين ، ولم يع حقيقة هذه المناهج أو ربما تجاهل هدف أصحابها ، ألا وهو كسر الجسر الذى يربط بين الأدب العربى الحديث وبين الأدب العربى القديم و بالتالى يخضع هذا الأدب الأصيل لمناهج ونظريات غربية التى طالما سعى الغرب إلى تحقيقها.

ومن الأدباء العرب الذين تأثروا بالمنهج الاستشراقى المؤرخ والروائى جرجى زيدان، هذا الكاتب الذي يعمد حينما يختار موضوع رواياته إلى اختيار المواقف الحساسة التى تمثل صراعا بين مذهبيين وسياسيين أو بين كتلتين تتصارعان على النفوذ والسيطرة ، فهو فى الوقت الذى يحدثنا عن فتاة غسان لانجده يعترض لفترة ظهور الاسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا لفترة انتشار الاسلام وفتوحاته فى عهد خلفائه ، إنما يعبر لهذه الفترة ليقدم لنا مجموعة من الروايات التى تمثل الصراع السياسي فى عهد بنى أمية، وآخر فى عهد عثمان وهى عذراء قريش ، فغادة كربلاء والحجاج بن يوسف، وهو لا يختار من العصر العباسى الأول إلا شخصية أبى مسلم الخراسانى التى تمثل الصراع بين العناصر العربية والفارسية، وشخصية العباسة التي تمثل الصراع بين الرشيد والبرامكة، وشخصيتى الأمين والمأمون وهما يمثلان عودة الصراع بين العرب والفرس من جديد.

"لقد كان جرجى زيدان بمعرفته للغات واطلاعه على المناهج الجديدة أشبه شئ بهمزة وصل بين الحركة العلمية العربية وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط فى أوربا وأمريكا ، واتصلت العلاقات بينه وبين أعلام المستشرقين، مثل (ثيودر نولد) و(يوليوس فلهاوزن) و(مارجوليوث) و(ادوارد سخاو). وكان معظم هؤلاء يفدون على القاهرة للدراسة أو البحث عن المخطوطات أو لنشر بعض ما أعدوه من مخطوطات عربية، فاتصلوا جرجى زيدان وأخذا عنه وأخذ عنهم، ووجدوه يبحث عن أسلوبهم مع تفوقه عليهم في العلم بالعربية فعظمت قيمته في أعينهم وأقبلوا يقرؤون فى الهلال وماينشر من كتب،وتصدى نفر منهم لترجمة بعض روايات تاريخ الاسلام،فكانت هذه الروايات من أول ماترجم من اللغة العربية من عيون الأدب العربي الحديث"